طفولة لاجئة

نجاح جيزاوي

طفولة لاجئة ... هذا أبسط وأعمق وصف يمكن أن أقوله عن طفولتي في الأردن، طفولة عادية قضيتها في الأردن، كنت أحب التعليم كثيراً، وكنت أوصف بأنني ذكية، وبما أنني لاجئة فلسطينية، فمدارس الوكالة هي المدارس التي نتعلم فيها، والتي كانت تشكل موطننا الثاني، حيث نلتقي فيها بمن يشبهوننا، ومن يتقاسمون معنا صعوبات الحياة وفكرة اللجوء.

أنهيت المرحلة الإعدادية في مدرسة الوكالة، وبعدها اضطررت إلى الانتقال إلى مدرسة حكومية أردنية، حتى أنهي المرحلة الثانوية، عندها شعرت بمحنة اللجوء من جديد؛ الانتقال من مدرسة كانت تشكل موطناً لي، إلى مدرسة أخرى غريبة عني، أبحث فيها عمن أكون، موطن يذكرني كل لحظة بأنني تلك اللاجئة الدخيلة، وزميلات ينظرن لي بعين الشفقة، لكن ذلك لم يثنني عن التواجد دوماً في الخطوط الأولى في المظاهرات والاجتماعات الوطنية، هاتفة بحقي في العودة إلى وطني، ما أثر سلباً على دراستي، ولم أستطع اجتياز الثانوية العامة.

عشقت فلسطين عن بُعد، وتمنيت أن أعيش فيها، إلى أن تحققت أمنيتي حين تقدم أحدهم لطلب الزواج مني، وافقت وانتقلت للعيش في موطني. تلك كانت النقلة؛ نقلة ليست ببسيطة، دفعت ثمنها الكثير، لكنني آمنت بأنها كانت تستحق الثمن. كانت أولى الصعوبات التي واجهتها هي وداعي لأهلي الذي استمر9 سنوات، دفعت ثمنها دموعاً واشتياقاً ولوعة وحرماناً، وبخاصة حرماني من الوداع الأخير لأمي التي توفيت ولم أستطع أن ألقاها للمرة الأخيرة، وبذلك لم أستطع أن أتقبل فكرة غيابها الأخير، حيث ما علق في ذاكرتي فقط هو وداعها الأول لي، وهي فاتحة ذراعيها تناجي ربها أن يكون اللقاء القادم قريباً.

حصلت على الهوية، وعدت لزيارة الأردن للمرة الأولى بعد 9 سنوات، كل شيء قد تغيّر، هل هم الغرباء عني أم أنا الغريبة؟ الصغار كبروا والكبار هرموا، الملامح جميعها تغيّرت، كل منهم لديه حياته الخاصة، ولكل منهم قصته، كما كان لي قصتي. عدت لأبحث عن أمي وأسأل عنها، ماذا قالت في لحظاتها الأخيرة؟ ماذا حدثتكم عني؟ بماذا أوصتكم؟

الحياة في فلسطين لم تكن بالهينة بتاتاً، عشت في قرية، اعتبرت فيها غريبة وكأنني لاجئة في وطني، لا أعرف أحداً ولا أحد يعرفني، نادراً ما كنت أجد أحداً يحدثني عن أبسط الأشاء التي تحدث معه، فقررت أن أملأ

حياتي بالأطفال، حتى أجد من يمكنني التواصل معه، وأبني معهم موطناً يخصني إلى أن عرض عليَّ العمل في إحدى رياض الأطفال في القرية، زوجي دعمني كثيراً لأعمل فيها.

بدأت حياتي المهنية، أصبحت معلمة في روضة، تغيرت حياتي من جديد، أصبحت أعرف الكثير من الناس، وهم أصبحوا يعرفونني، عادت لي شخصيتي القيادية القديمة، استعدت قوتي من جديد، وكذلك ثقتي بنفسي، أحببت عملي كثيراً، وأصبح يشكل نافذتي على العالم.

عملت سنتين مربية أطفال، إلى أن جاءتنا، في أحد الأيام، دعوة للالتحاق ببرنامج للطفولة المبكرة في مؤسسة عبد المحسن القطان. رفضت زميلاتي الانضمام لها، لكنني وافقت وبشدة. أردت أن أعود مجدداً إلى تلك الطالبة المجتهدة، أتعلم وأبحث وأجرب.

شكّل التحاقي ببرنامج الطفولة في «القطان» نقلة نوعية وكبيرة في حياتي، تغيرت نظرتي لمهنتي ولدوري، أصبحت أرى العالم الخاص والكبير في حياة أولئك الكائنات الصغيرة، وأرى في الروضة مكان تعلم مهم وضروري، وليس مكاناً لقضاء بعض الوقت فيه. امتلكت أساليب جديدة في التعليم، أعادت لي طاقتي للعمل، جددتني وأشعرتني بمسؤولية أكبر.

أصبح «القطان» بيتي الثاني، شعرت بالكثير من الانتماء له، أصبح مركز اهتمامي وحديثي حتى ثار الكثير من التساؤلات حولي: «ماذا يعلموكن؟ وشو بيعملوا لكم؟ شو الشي إللي بتحكي فيه «دراما ومشروع»؟ ليه لهالدرجة ملتزمة معهم وما بتحبي تغيبي عن برنامجهم؟ ليه بتصوري حصصك؟ وشو إللي بتعلميه لأطفالك لهالدرجة بحبوا الروضة؟

أثناء عملي في أحد المشاريع التطبيقية مع أطفالي في الروضة؛ وهو المشروع الثاني لي، الذي بدأت أتقنه وأعلمه ضمن نهج عباءة الخبير الذي تعلمته، والذي استطعت أن أرى أثره الكبير على تعلّم أطفالي وتميزهم عن باقي أطفال الروضة، اعتقل ابني، فدخلت في حالة نفسية صعبة جداً، أثرت على كل تفاصيل حياتي، شعرت بأن العالم ينهار أمامي، وأنني لا أملك أي رغبة في الاستمرار في أداء أي عمل كنت أقوم به، تغيبت عن الروضة، وانزويت بعض الشيء، ولكن ما أن عدت إلى الروضة ورأيت أطفالي الذين ألحوا علي العمل بالمشروع ومتابعته، وأظهروا حباً كبيراً لتعلمهم الذي بدأوه ورغبة كبيرة فاقت كل توقعاتي، عدت إلى العمل معهم مجدداً، ومتابعة ما بدأوه. دفعوني إلى العمل وأخرجوني من حالتي النفسية الصعبة التي كنت أمر بها حينها، تذكرت الجملة التي ودعني بها ابني أثناء اعتقاله «ما تبكي يا أمي قدام الجنود، بلاش يحسوا إنهم أقوى منا، كوني قوية» ... هذه الجملة تكررت كثيراً في عيون أطفالي الذين شكلوا الحافز الأكبر لعودتي للعمل معهم في المشروع.

روضة ربيع المستقبل- نعلين

جانب من تطبيقات المربية نجاح جيزاوي مع أطفال روضة ربيع المستقبل في نعلين- رام الله.